جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

المادة: التعبير القرآني

المرحلة: دكتوراه/ لغة

أستاذ المادة: أ.د. محمد ياس خضر

تمكن اللفظ في التعبير القرآني

التمكن مرتبط بالأسلوب من حيث موضع البنية في اطار الجملة النحوية الواحدة ومدى التوافق بينها وبين ما يجاورها من أبنية[1] ، فعندما درس اللغويون العرب الاعجاز القرآني قديما أثر عنهم كثير من الاشارات التي تفصح عن سر استعمال اللفظة دون مرادفها ، ولعل اول اشارة اثرت عن القدماء الى دقة الاستعمال القرآني هي اشارة **الجاحظ** إذ قال : "وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر ؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع ، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين . ألا تراه لا يجمع الأرض

---

[1]) ينظر التمكن الدلالي في الالفاظ الوارد مرة واحدة في القرآن الكريم/بحث :١١٨

أرضين، ولا السمع أسماعا. والجاري على أفواه العامة غير ذلك ، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال."[٢]

ومعلوم ان القرآن الكريم فُهِم في ضوء نظرية النظم ؛ اذ الاعجاز عند عبد القاهر الجرجاني ليس في الكلم المفردة وليس في معانيها ولا تركيب الحركات والسكنات او الفواصل .....إلخ"[٣] ، بل الذي اعجز العرب ان يأتوا بمثله تلك المزايا التي ظهرت في نظمه وسياقه العام اذ يقول **الجرجاني** : " واعلمْ أنه لا سبيلَ إلى أن تعرفَ صحَّةَ هذه الجملة حتى يبلغَ القولُ غايتَه وينتهيَ إلى آخِرِ ما أردتُ جمعَهُ لك وتصويرَهُ في نفسك وتقريرَهُ عندك إلا أنّ هاهُنا نُكتةً إنْ أنتَ تأمَّلتَها تأمُّلَ المتثبَّت ونظرتَ فيها نظرَ المُتَأنّي رجوتُ أن يَحْسُنَ ظَنُّك وأن تنشَطَ للإصغاءِ إلى ما أُوردهُ عليك . وهي أنَّا إذا سُقنا دليلَ الإعجازِ فقلنا : لولا أنَّهم حين سَمعوا القرآن وحين تُحُدُّوا إلى معارضتهِ سمعوا كلاماً لم يَسمعوا قطُّ مثلَه وأنهم قد رازوا أنفسَهم فأحسُّوا بالعجزِ عن أن يأتوا بما يُوازيهِ أو يُدانيهِ أو يقعَ قريباً منه لكان مُحالاً أن يَدعوا معارضتَه وقد تُحُدّوا إليه وقُرِّعُوا فيه وطُولبوا به وأن يتعرضُوا لشَبا الأسنَّة ويقتحموا مواردَ الموت فقيلَ لنا : قد سَمعنا ما قلتم فَخبِّرونا عنهم عَمّا ذا عَجزوا أعن مَعانٍ في دِقَّةِ معَانيهِ وحُسنها وصِحَّتها في العقول أم عن ألفاظٍ مثلِ ألفاظه فإنْ قلتم عنِ الألفاظ فماذا أعجزهُم منَ اللفظ أم ما بهرهُم منه فقلنا : أعجزَتْهُم مزايا ظهرتْ لهم في نظمهِ وخصائصُ صادفوها في سياقِ لفظهِ وبدائعُ راعتهم من مبادئ آيهِ ومقاطِعها ومجاري ألفاظِها ومواقعها وفي مضربِ كلِّ مثلٍ ومساقِ كلِّ خبرٍ وصورةِ كلِّ عظةٍ وتنبيهٍ وإعلامٍ وتذكيرٍ وترغيبِ وترهيبٍ ومع كلِّ حُجةٍ وبُرهانٍ وصفةٍ وتبيان وبَهرهُم أنَّهم تأمَّلوهُ سورةً سورةً وعُشراً عُشراً وآيةً آيةً فلم يجدوا في الجميع كلمةً ينُبو

---

[٢]) البيان والتبيين ١/ ٤١

[٣]) ينظر الاعجاز القرآني ونظرية النظم ١٣٠.

بها مكانُها ولفظةً يُنكرُ شأنُها أو يُرى أنَّ غيَرها أصلحُ هناك أو أشبهُ أو أحرى وأخلق ."[٤]

ففي كلام الجرجاني صراحة لا تخفى في انه لا يقوم مقام المفردة القرآنية ما يشابهها او يقاربها بل لها من الاتساق والالتئام في سلكها مما لا يمكن ان تبدل بغيرها. ثم يؤكد الجرجاني رأيه قائلا : ((وهل قالوا: "لفظةٌ متمكَّنةٌ، ومقبولةٌ"، وفي خلافهِ: "قلقة، ونابية، ومستكرهة"، إلا وغضرهم أن يعبروا ببالتمكن عن حسنِ الاتفاقِ بينَ هذه وتلك مِن جهةِ معناهُما، وبالقَلَقِ والنُّبوِّ عن سوء التَلاؤم، وأنَّ الأولى لم تَلِقْ بالثانية في مَعناها، وأن السابقَةَ لم تصلُحْ أن تكونَ لِفْقاً للتالية في مؤادها؟))[٥]. اذن فهو ينفي وجود الفصاحة في مفردات معزولة .

ويقول **ابو هلال العسكري** :" وحسن الرّصف أن توضع الألفاظ في مواضعها ، وتمكّن في أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفا لا يفسد الكلام ، ولا يعمّى المعنى ؛ وتضمّ كل لفظة منها إلى شكلها ، وتضاف إلى لفقها "[٦] . وفي هذا يقول العتابي: الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح ؛ وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدّمت منها مؤخّرا، أو أخّرت منها مقدّما أفسدت الصورة وغيّرت المعنى؛ كما لو حوّل رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحوّلت الخلقة، وتغيّرت الحلية[٧].

أما الدقة في القرآن الكريم فتتسع دائرتها لتشمل العبارات والسياق الذي ترد فيه اللفظة ومقام الآية او المناسبة التي نزلت فيها قال **السيوطي** : " الأول أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضا بأن يقرن الغريب بمثله والمتداول بمثله رعاية لحسن

---

[٤]) دلائل الإعجاز : ٥٠

[٥]) دلائل الإعجاز ت شاكر ١/ ٤٥.

[٦]) كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر : ١٦١

[٧]) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

الجوار والمناسبة... والثاني أن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد فإن كان فخما كانت ألفاظه فخمة أو جزلا فجزلة أو غريبا فغريبة أو متداولا فمتداولة أو متوسطا بين الغرابة والاستعمال فكذلك[٨].

وهذه الدقة في التعبير واختيار اللفظة المناسبة التي لا يشركها فيها مرادفها لا تكون إلا في اركان الفصاحة والبلاغة أو في نافذة الاعجاز البياني للقران الكريم ، قال **ابن الاثير** : " ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن في الاستعمال ، وهما على وزن واحد وعدة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يفرق بينهما في مواضع السبك ، وهذا لا يدركه إلا من دقَّ فهمه وجلَّ نظره "[٩].

ويقول **الباقلاني** :" واعلم أن هذا علم شريف المحل ، عظيم المكان ، قليل الطلاب ، ضعيف الأصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه وهو أدق من السحر، وأهول من البحر، وأعجب من الشعر ، وكيف لا يكون كذلك: وأنت تحسب أن وضع " الصبح " في موضع " الفجر " يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعراً أو سجعاً؟ وليس كذلك، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع ، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه، وتضرب بجرانها، وتراها في مظانها، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجد الأخرى – لو وضعت موضعها – في محل نفار ، ومرمى شراد ، ونابية عن استقرار "[١٠].

بعض الأمثلة التطبيقية حول تمكن اللفظ في التعبير القرآني :

بعد الخلوص من أقوال علماء اللغة التي تصف دقة تمكن المفردة في السياق القرآني كان لابد من تعزيز تلك الأقوال ببعض الأمثلة التطبيقية التي من خلالها يمكن ان

---

[٨]) الإتقان في علوم القرآن ط الهيأة المصرية العامة ٥/ ١٧٤٤

[٩]) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت الحوفي ١/ ١٦٤.

[١٠]) إعجاز القرآن : ١٨٤

يكشف ذلك جليا عند تتبع الآيات المتشابهات في الكتاب العزيز ؛ اذ تجد ان القرآن الكريم يستعمل اللفظة في مكانها الذي يناسبها مما لا محيص من احلال غيرها مكانها ولعل خير شاهد على ذلك انقلاب عصا موسى (عليه السلام) مرة **(حية)** عندما يكون الخطاب لموسى (عليه السلام) ولا يراد من الحية الا جنسها وفي موضع التحدي للسحرة فيأتي التعبير عنها بـ**(الثعبان)** لما فيه من العظم والتهويل اما في موضع سرعة الحركة فيؤتى بـ**(الجآن)** فمثل هذه المغايرة في الالفاظ صحبها اختلاف المقامات والمناسبات فانظر الى دقة التعبير القرآني الذي والبيان القرآني يجب أن يكون له القول الفصل فيما اختلفوا فيه، حين يهدي إلى سر الكلمة لا تقوم مقامَها كلمةٌ سواها من الألفاظ المقول بترادفها.[١١]

ومن ذلك بيانه دقّة كلمة **(أكله)** في الآية الكريمة : (وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ) ، يقول **الخطّابي** : " فإن الافتراس معناه في فعل السّبع القتل فحسب ، وأصل الفرس دقّ العنق ، والقوم إنّما ادّعوا على الذئب أنّه أكله أكلا ، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلا ولا عظما ، ذلك لأنهم خافوا مطالبة أبيهم إيّاهم بأثر باق منه يشهد بصحّة ما ذكروه "[١٢].

فالناقدون يرون الصّحة في (افترسه) الذّئب ، والخطّابي يرى أنّ البيان القرآني لا يتّسم بالزّلل والفوضى في إلباس المعاني بالألفاظ ، فالفعل أكل يدلّ على إخفاء آثار الجريمة ، وخصوصية الموقف تتطلّب هذا الفعل لا غيره .

ويؤيّد ما ذهب إليه الخطّابيّ أنّ (أكل) ورد قبل أن يدّعوا ما ادّعوا ، فعلى لسان أبيهم يعقوب عليه السلام جاء في السورة : (وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ) إنّه الأكل وليس الافتراس.

---

[١١]) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق : ٢٠٩

[١٢]) جماليات المفردة القرآنية : ٢٨٤

ومن تلك التلميحات لبيان جمال الفرق بتذوقه في جو المقام قول احد المحدثين في قوله تعالى (ووصينا الانسان بوالديه) ، يقول : فعبر بكلمة **(وصينا)** بدلا من **(أمرنا)** اشعارا بأن المسألة مفرغ منها تحتاج الى تحريك النفس نحوها لا الى الالزام" [١٣].

وقد يقف علماء الاعجاز على مقام المفردة بمقارنتها بمفرداتها وان لم تقع في القرآن الكريم وانما يستعملون هذا الاسلوب اللغوي لبيان مزيَّة المفردة في موضعها ولو تأملنا موقع **(ليأخذوه)** من قوله: (وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ) وهل تقع في الحسن موقع قوله: " **ليأخذوه** " كلمة؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة؟ وهل يسد مسده في الأصالة نكتة؟ لو وضع موضع ذلك " ليقتلوه "، أو " **ليرجموه** "[١٤].

أو " **لينفوه** "، أو " **ليطردوه** " أو " **ليهلكوه** "، أو " **ليذلوه** "، ونحو هذا ، ما كان ذلك بديعا ولا بارعا ، ولا عجيبا ولا بالغا. فانقد موضع هذه الكلمة ، وتعلم بها ما تذهب إليه من تخير الكلام الألفاظ ، والاهتداء للمعاني[١٥].

وكذلك الحال مع ما جاء في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ ﴿٣٨﴾ ﴾ التوبة ، فلو اننا ابدلنا **(اثاقلتم)** واحللنا مكانها **(تثاقلتم)** لأحسسنا بشيء من الخفة وانسيابية النطق في حين البيان القرآني أراد الشدة والثقل اللذين اعطتهما أصوات هذه الكلمة وتركيبها ، فالتصوير الفني للفظة **(اثاقلتم)** كفيل بإعطاء صورة لذلك الجسم المثَّاقل عن النفير للجهاد في سبيل الله ، فالثقل في تلفظ هذه المفردة يوحي بالحركة البطيئة التي تكون من المثَّاقل[١٦].

---

[١٣]) محاضرات في تفسير القرآن : ٢٩٦-٢٩٧.

[١٤]) إعجاز القرآن للباقلاني : ١٩٧-١٩٨

[١٥]) المصدر نفسه

[١٦]) ينظر دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني د. محمد ياس الدوري : ٢٤.